

شرح مدارج السالكين

التعريف بالكتاب ومؤلفه



المقدمة

أحمد الله رب العالمين، وأصلي وأسلم على أشرف المرسلين، والرحمة المهداة إلى الخلق أجمعين، سيدنا ومولانا محمد، صلوات ربي وتسليماته عليه، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، ومن تابعهم بإحسان إلى يوم الدين.

نسعى من خلال هذه السلسلة الطيبة المباركة، التي نتناول فيها شرح هذا الكتاب القيم "مدارج السالكين" إلى تجديد الإيمان في قلوبنا، نسأل الله سبحانه



وتعالى أن يحبب إلينا الإيمان، وأن يزينه في قلوبنا، وأن يُكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان.

في رحلتنا مع التزكية والرقائق، بدأنا بشرح كتاب "الداء والدواء" أو "الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي" وها نحن بعون الله وتوفيقه ومدده، نُثَني بشرح كتاب جديد من كتب الإمام/ ابن القيم في التزكية والرقائق، وهو كتاب "مدارج السالكين".

وهذا الكتاب من الكتب القيمة، التي يحتاج إليها المسلم لتزكية نفسه، وتربيتها تربيةً روحية، ويُعد من أشهر كتب الإمام ابن القيم، ومن أنفعها.

وهذا الكتاب سيكون له تأثيرٌ كبيرٌ في حياتنا؛ لأن أمر بناء النفس، وتطهيرها وتنقيتها من عيوبها؛ ليس بالشيء السهل

معنى مدارج السالكين

اشتُهر الكتاب باسم "مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين"، ومدارج: جمع مدرجة، والمدرجة أو المدرج هو: الطريق.

في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «أن رجلًا كان يزور أخًا له في الله فأرسل الله له على مَدرَجته ملكا» (رواه مسلم في صحيحه)، "على مدرجته" أي: على طريقه

فالمقصود بمدارج: أن هناك منازل أو محطات، فكأن الطريق إلى الله، مثل طريق السفر؛ فأنت عندما تسافر من مدينة إلى مدينة أخرى، ولتكن المسافة بينهما خمسمئة كيلو، فهناك محطات على الطريق تمر عليها، وتراها أثناء سيرك عليه، وهذه المحطات، أو هذه المنازل، أو هذه المدارج كل واحدة منها لها اسم، أو عنوان، ومن الممكن أن تنزل في هذه المحطات؛ لتتزود بالطعام والشراب، أو لقضاء الحاجة.

فتخيل العلماء أن الطريق إلى الله عز وجل كطريق السفر، فالإنسان منا منذ أن يُولد، ويُكلف، ويبلغ سن الرشد، ثم يصل إلى الأجل المسمى، الموت

فلو افترضنا أن هذه الرحلة تبدأ من سن خمس عشرة سنة، إلى نهاية العمر، فخلال هذه الرحلة، الإنسان يسير إلى الله عز وجل؛ وفي سيرك إلى الله ستواجه أشياء طبيعية، وستجد بدعًا وضلالاتٍ، وستواجه شياطين إنسٍ وجنٍ، وستجد معوقاتٍ ومهلكاتٍ؛ ولذلك ستحتاج إلى أن ترجع إلى طريق الله سبحانه وتعالى.

صراط الله المستقيم والسبل المعوجة

ذكر ابن مسعود "رضي الله عنه" أن النبي صلى الله عليه وسلم ذات مرةٍ خط لأصحابه خطًا مستقيمًا، ثم قال: "هذا سبيلُ اللهِ"، ثم خطَّ خطوطاً عن يمينِه وعن شمالِه، وقال: "هذه سُبُلٌ، على كلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه»، وقرأ قول الله تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [سورة الأنعام: 153] (رواه الإمام أحمد في مسنده)



ولذلك أقول دائمًا: إن الطريق إلى الله عز وجل واضحٌ، لا لبس فيه ولا غموض؛ لكنه السير فيه ليس بالشيء السهل، فستقابل فيه فتنًا، ومعوقاتٍ

وأي طريق أعوج، تجده غير واضحٍ، وتجد نفسك فيه غير مستريحة له؛ لأنه يتنافى مع الفطرة.

وكل طريق أعوج، تجد شياطين الإنس والجن تسانده، وتدعمه؛ لذا عندما تجد أهل الباطل يروجون لما يدعون أنه "جماعة حق" أو "جماعة دينية" أو "فرقة إسلامية"، أو يغضون الطرف عنها، أو يشجعونها، فاعلم أنهم لا يشجعون الحق أبدًا؛ إنما يشجعون باطلًا.

وإنما يروج باطلهم عليك، لعدم وضوح الصورة، أو لأن الاسم يَغُرك، أو لوجود بعض الشخصيات، فيحدث اللبس والغموض، والفتنة والابتلاء؛ لكن طريق الحق هو طريق الله عز وجل.

الشيخ/ محمد متولي الشعراوي "رحمه الله" كان يقول: إن علامة طريق الحق أن تبذل وتضحي، وأنت تسير فيه؛ فإذا وجدت دعوة ينتفع أهلها من ورائها، فاعلم أنها دعوة باطل.

فمن يقول أنه يعمل لله ويأخذ نسبة 5% أو10%، أو يقول أنه يعمل لله ويأخذ راتبًا، أو يقول أنه يعمل لله وثروته تزيد وتتضخم، وتأتي له إعانات ومعونات ومساعدات، فهذا في سبيل الدنيا، وسعيٌ في سبيل الشيطان، فمن يعمل لله لا



ينتفع من وراء الحق؛ إنما يبذل ويضحي.

ولذلك سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم، لما كان يضيق صدره لما يجد ويعاني، كان ربنا يقول له: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ} [سورة الأحقاف: 35] و{وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا}[سورة الأنعام: 34]

فإذا رأيت طريقا سهلا لا عوائق فيه، فليس هو الطريق الذي اختاره الله؛ فالطريق إلى الله لا يخلو من العوائق والابتلاءات، فلو وصفت لك بيتي، فقلت لك: أنا أسكن في مكانٍ بعيدٍ، وهذا المكان لكي تصل إليه ستجد طريقًا مظلمًا، وستجد فيه كلابًا يمكنها مهاجمتك، وستجد حفرةً يمكنك أن تقع فيها، فجئت فوجدت طريقا منيرًا، وهادئًا وجميلًا ونظيفًا، فتقول: ها هو الطريق سهلًا، على عكس ما قيل لي!

كلا، بل أنت تسير في الطريق الخاطئ، فالطريق إلى الله عز وجل لابد أن يكون كما قال الرسول عنه: «حُفَّتِ الجَنَّةُ بالمَكارِهِ، وحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهَواتِ» (متفق عليه) فالجنة حُفت بما تكرهه النفس، والنار حُفت بالشهوات والغرائز التي أودعها الله في الناس؛ ورغم أن الله قال عنها أنها نار جهنم، وعذاب الحريق، وعذاب أليم، وعذاب شديد، وعذاب مهين، فهناك من الناس من يسير في طريقها، لماذا؟ لأن الشهوات و الغرائز هي التي تأخذه وتجذبه إليها، ولكي لا تجذبك هذه الغرائز، ولا تقع في الفتن، ولاتغتر بالفتن والشهوات، لابد من تزكية



نفسك، وهذا هو موضوعنا.

التعريف بالإمام ابن القيم

ابن القيم: هذه تسمى كنية، وكلمة كنية في اللغة العربية هي التسمية باسم "أبو فلان"، والتسمية بالنسبة للمرأة باسم "أم فلان" أو "ابن فلان".

والعرف في الغرب المناداة باسم العائلة، وهذا من الاحترام، فبدلًا من أن يقول لك: يا مسيو فلان، أو يا سيد فلان، يقول لك باسم العائلة، سواء رجل أو امرأة.

لكن عندنا في العادات العربية والإسلامية يُنادى الرجل بأكبر أبنائه، أو بما اشتهر به من كُنية، فكان نبينا صلى الله عليه وسلم يُكنى ويُنادى ب "أبي القاسم" على اسم أكبر أبنائه الذكور، القاسم .

لكن أبا بكر الصديق "رضي الله عنه" لم يكن له ابن اسمه بكر، ولكنه اشتهر بهذا اللقب، واسمه عبدالله.

وأبو هريرة "رضي الله عنه" لم يكن عنده ابن اسم هريرة؛ ولكن كانت هذه كنيته التي التصقت به، بعد أن أطلقها النبي عليه مداعبة له، لما كان يحمل هرة في كمه، فاشتهر بذلك، واسمه عبد الرحمن بن صخر الدوسي.

وهناك كثير من العلماء الذين اشتهروا وعرفوا بلقبهم، سواء نسبة إلى بلدهم مثل: البخاري، أو نسبة لمهنتهم مثل: أبو بكر القصاص ، والبزار، أو أنه ابن



فلان نسبة إليه مثل: ابن قيم الجوزية، وابن تيمية.

وابن تيمية ليس نسبة إلى أبيه؛ بل نسبة إلى جدتهم، وكانت امرأة صالحة، ومن أهل العلم، فنُسب إليها هو وجده؛ وجده اسمه أبو البركات مجد الدين ابن تيمية، صاحب كتاب "منتقى الأخبار" جمع فيه أحاديث للرسول، وجاء الإمام/ الشوكاني وقام بشرح هذه الأحاديث في كتاب سماه "نيل الأوطار في شرح منتقى الأخبار"، ولذلك يقال في الكتب ابن تيمية الجد، أما ابن تيمية المشهور فهو: أحمد بن عبد الحليم، لكن نسب إلى جدته، واشتهر هو وجده بهذه الكنية.

كنيته: ابن القيم نسبة إلى أبيه الذي كان من العلماء، ولذلك عندما تقرأ في ترجمة الإمام ابن القيم ستجد أن أباه من أوائل شيوخه، وأبوه كان مديرًا أو مسؤولًا عن مدرسة لتعليم طلبة العلم اسمها "الجوزية"، وكان في دمشق مدرستان هما: الجوزية والصدرية، ولأنه كان مديرًا لمدرسة الجوزية، فسموه قيم الجوزية، فقيم معناها: مدير.

فلما وُلد ابن القيم اشتهر بالنسب إلى والده، فيقال: هذا ابن قيم الجوزية، فنُسب إلى أبيه ومهنته ومكانته بين الناس، واشتهر بذلك ونُسِيَ الأب وعرف الابن، فيقال: ابن القيم، أو ابن قيم الجوزية.

اسمه: محمد بن أبي بكر بن أيوب.

شيوخه: له شيوخ كُثُر من أشهرهم: والده، وابن تيمية، ومن العجيب أن من



تلامذة ابن تيمية وابن القيم أعلام كبار مثل: ابن كثير صاحب التفسير المشهور، والإمام الذهبي صاحب سير أعلام النبلاء، وغيرهما من أهل العلم المشاهير.

العلم اللدني ومنهج ابن القيم في الفهم والتدبر

ابن القيم من الذين ـ نحسبهم ولا نزكيهم على الله ـ آتاهم الله العلم اللدني، فما هو العلم اللدني؟

في العلم هناك ما هو كسبي، مثل ما نتعلمه من العلوم، كتعلم الفقه والحديث والتفسير

وهناك علم هو فتح من الله عز وجل، ويُسمى الإشراق الروحي، أو الإلهام من الله سبحانه وتعالى، وهذا العلم لا يوجد في الكتب؛ إنما هو فتح من الله جل وعلا.

ولذلك تجد كثير من العلماء عندما ألفوا كتبهم سموها باسم "الفتح" إشارة إلى أنه فتح من الله، فالإمام ابن حجر سمى شرحه لصحيح البخاري ب "فتح الباري"، كأنه يقول ما عملته في هذا الكتاب هو فتح من الله عز وجل، فهذا هو العلم اللدني، فهو تعلم العلم، ثم وفقه الله تعالى لاستخراج بعض الأمور، والنقاط، والأحكام، واللمحات الجميلة، والأسرار.

وهناك الكثير من الكتب التي عُنونت باسم الفتح غير فتح الباري، كفتح المغيث،

وفتح المبدي، وفتح المنعم، إشارة من أصحابها إلى أنها فتحٌ من الله عز وجل.

وقد تعرضنا لشرح عدد من كتب الإمام ابن القيم، فشرحنا بفضل الله كتاب "الفوائد" وكتاب "الجواب الكافي" وهذا هو الكتاب الثالث له، ونلمس من كلامه أن فيه إشراقة قلب متعلق بالكتاب والسنة، يتأمل في كتاب الله ويخرج بأسرار، ويوفق لمعاني لم يعرفها، أو لم يقلها أحد من قبله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فقد تقرأ كتابًا فيذكر لك نصًا، فتُعجب بهذا النص، فتنظر في هامش الكتاب في أسفل الصفحة، فتجد أنه منقول من كتاب آخر؛ لكن ابن القيم له عبارات ومعانٍ عظيمة، وأسرار جليلة، انفرد هو بها، كلها فتح من الله سبحانه وتعالى.

وكان مشربه الأول الذي يعتمد عليه، هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولذا تجد عنده ربط عجيب بين النصوص، وكذا شيخه ابن تيمية.

نحن مثلًا عندما كنا طلابًا في الأزهر، عندما نتكلم في مسألة ما فنحن نحفظها جيِّدا، فعندما نُسأل عن الدليل على وجوب صيام رمضان، من الكتاب أو السنة، نقوم بالرد مباشرة مما نحفظ من أدلة؛ أما الإمام ابن القيم فإنه يغوص في المعاني، كمن يغوص في البحر ويخرج منه بالدرر والياقوت، هكذا كان هو وشيخه ابن تيمية، وهذا فتح من الله؛ وليس ذكاءً أو عبقرية، فالله فتح عليهم بشكل عجيب، و ألان لهم فهم الكتاب والسنة، فهمًا غضًا طريًا.



العلم بين الفهم والتلقين

أكثر شيء متعب في مسألة التمذهب، أنه ينقل العلم عن طريق العنعنة، هذه العنعنة الطويلة تُميت العلم وتضعفه، حتى يصير طلبة العلم أشبه بالببغاء، يرددون الكلام دون فهمه.

أذكر ذات مرةٍ ونحن ندرس الفقه في الثانوية الأزهرية، هناك باب اسمه "أقل الحيض وأكثره، وأقل النفاس وأكثره"، وفيه مسألة أقل الحمل وأكثره، فكان مما درسته فيها، ونقلته للناس في أحد الدروس المسجدية، أن أقل الحمل ستة أشهر وأكثره أربع سنوات، قال الإمام مالك: حدثني جارنا محمد بن عجلان رجل صدق، وزوجته امرأة صدق، أنها حملت أربعة أبطن، كل بطن في أربع سنين.

وأنا طالب في الثانوية، قلت ما حفظته دون فهم، وكان أحد الأطباء حاضرًا للدرس، فقال لي: يا شيخ، هذا الأمر يستحيل!!

قلت له: ما المستحيل في الأمر؟!

قال: يستحيل أن تحمل المرأة حملًا لمدة أربع سنوات!!

قلت: هكذا درستها، والله على كل شيء قدير.

قال لي: نعم، الله على كل شيء قدير؛ لكن يستحيل أن يستمر الحمل لمدة أربع



سنوات؛ لأنها بعد أن يكمل حملها الشهر التاسع، فإن هناك خطرا عليها وعلى الجنين، ولابد من تدخل جراحي بولادة قيصرية، فبقيت على هذا القول، حتى قرأت كلامًا للشيخ/ القرضاوي "رحمه الله" في أحد كتبه عن فقه الطهارة، ذكر مثل هذه الآراء التي لا وجود لها أصلا، وأنها من الناحية العلمية والشرعية غير صحيحة وغير واقعية.

وهذا الكلام يدرس إلى الآن في الأزهر، ويقال للطلاب أن أقصى الحمل أربع سنين، فنحن كطلبة نُلقن دون أن نعقل أو نفكر؛ أما ابن القيم فإنه يأخذ الآية والحديث، ويمضغهما مضغًا، ويطحنهما طحنًا، ثم يستخرج المعاني.

فحاله كحال الطاهي المحترف، الذي بمجرد تذوقه للقمة واحدة من طعامٍ ما أن يعرف ما فيه من بهاراتٍ ومكونات، لما عنده من خبرةٍ ودراية، فهكذا كان ابن القيم يطحن النص ويستوعبه، فهمًا ودراية ودراسة، ثم يستخرج منه المعاني

فالعلم اللدني هو فتح من الله سبحانه وتعالى، وكذا الإشراق الروحي؛ ولذا نجد للإمام ابن القيم بصمة في الكتاب، نجد ذلك في المقدمة، وفي شرحه وتعليقه.

أصل كتاب مدارج السالكين

الكتاب هو عبارة عن شرح لكتاب مشهور في زمان الإمام ابن القيم، ربما لم يعد له ذكر الآن اسمه "منازل السائرين" للإمام/ أبي إسماعيل عبد الله الهروي، ويلقب أيضا بشيخ الإسلام، وهذا يعنى أنه كان ذو مكانة كبيرة بين العلماء،



وكان حنبلي المذهب؛ لكن كان عنده نزعة صوفية، ولذلك كان ابن القيم يقول: إن عمله خيرٌ من علمه؛ لأنه كان له شطحات، سيعلق عليها ابن القيم.

فصنع الإمام ابن القيم للسائرين في الطريق إلى الله منازل ينزلون فيها، فتكلم عن أول منزلة، وهي منزلة الغفلة، كأن السائر إلى الله نائم غير واعٍ سفر طويل، فأراد أن ينبهه ويوقظه.

ثم بعد يقظته من غفلته، لابد له من العزم والإرادة، ثم التوبة، ثم المراقبة، ثم التفكر، ثم الإخبات، ثم الخشوع، وهكذا..

عبارة الإمام ابن القيم، وقبله الشيخ أبي إسماعيل الهروي تكون أحيانًا واضحة وسهلة، وأحيانًا تكون غامضة، لماذا؟

لأن الكتاب لم يكتب بلغة عصرنا؛ إنما كتب بلغة عصره، ولذلك حتى في الكتابين السابقين الذين تعرضنا لشرحهما من كتب ابن القيم، كنت هناك كلمات أحيانًا تقف أمامي، وهناك جملٌ لم أفهمها؛ لأنه إمام عَلَم، متمكن في اللغة.

سنحاول إن شاء الله توضيح بعض هذه الألفاظ الغامضة، أو بعض الجمل غير الواضحة، وهناك أشياء لم يعد لها وجود في زماننا كمناقشة بعض الفلاسفة، وبعض الآراء التي ماتت، فلا ينتفع بدراستها الآن، ربما ينتفع بها طلبه العلم الشرعي في الدراسة الأكاديمية.

ختاما: أسأل الله أن ينفعنا بهذا الكتاب الطيب المبارك، ويفتح علينا فتوح العارفين، وأن يهدينا إلى سواء السبيل، وصل اللهم وسلم على سيد الأنبياء وخاتم المرسلين.